الصهيونية استراتيجية التوتر الدائم

صخر حبش (أبونزار)

الصهيونية استراتيجية التوتر الدائم

إذا كانت الجذور هي التي تشكل تشبث البذرة بالارض، وهي التي توفر النسغ الذي يرسم شكل جذع واغصان شجرة الواقع صعوداً نحو ثمار المستقبل، فان معرفة جذور ودوافع نشوء الحركة الصهيونية هي التي ترسم الخط البياني لحاضرها ومستقبلها.

ومن المؤكد ان ميلاد الكيان الصهيوني قبل خمسين عاماً كان نتيجة تزاوج الحاجة اليهودية مع الحاجة الاستعمارية لهذا الكيان وذلك انسجاماً مع تلاقي مصالح الطرفين في الزمان والمكان.

فالاستعمار الاوروبي الذي استهدف بلادنا من شرقها الى غربها كان مسلحاً بقوانين خاصة كان على رأسها:

أولاً: قانون التفوق:

وهو ما كرسته العنصرية بما يسمح بتقسيم البشر وتصنيفهم الى سادة وعبيد. وان الجنس الابيض الذي يشكل السادة حمله الله عبء الرسالة الحضارية وانه مطلوب منه التضحية من اجل تحقيق هذه الرسالة. هكذا برر الرجل الابيض جرائمه ضد شعب الهنود الحمر في امريكا وضد شعوب اسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية.

ثانياً: قانون المصلحة:

وينطلق من انه ليس هنالك للدول الاستعمارية سياسة ثابتة او مبدئية. وانما هنالك مصالح ثابتة وهي التي تضمن الاستغلال والنهب بعيداً عن المثل والمبادئ. فما يخدم مصلحة الاستعمار في لحظة يجب التمسك به، واذا تعارض مع المصلحة بعد لحظات فلا بأس من تركه ومحاربته.

ثالثاً: قانون السيطرة:

ويعني التحكم. وفرض الارادة بما يخدم المصلحة. وتاخذ السيطرة اشكالاً مختلفة تتناسب مع طبيعة الدول الاستعمارية والبلاد المستعمَرة. ويلعب قانون المصلحة دوراً هاماً في انتقاء شكل السيطرة الاكثر ملائمة لتحديد الحد الاقصى للمصلحة في الزمان والمكان وفي الكم والكيف.

ومن الطبيعي مع تغير الظروف ان تتغير اشكال السيطرة لتضمن استمرار الاستغلال.

ومع بدايات النهوض الوطني عند الشعوب في مطلع هذا القرن، اصبحت مصالح الدول الاستعمارية مهددة. وكانت بريطانيا العظمى اكبر هذه الدول واكثرها خشية من المستقبل. ولمواجهته بصورة علمية وعملية، قام وزير خارجية بريطانيا السير هنري كامبل بنرمان بدعوة الدول الاوروبية الاستعمارية فرنسا، بلجيكا، هولندا، البرتغال، اسبانيا وبريطانيا. وجاء في كلمته في افتتاح مؤتمر الاستعمار عام 1905 م ما يلي (... ان الامبراطوريات تتكون وتتسع، وتقوى، ثم تستقر الى حد ما ثم تنحل رويداً رويدا .. ثم تزول،

والتاريخ مليء بمثل هذه التطورات. وهو لا يتغير بالنسبة لكل نهضة ولكل امة. فهنالك امبراطوريات روما، اثينا، الهند والصين. وقبلها بابل وآشور والفراعنة وغيرهم. فهل لديكم اسباب او وسائل يمكن ان تحول دون سقوط الاستعمار الاوروبي وانهياره. او تؤخر مصيره. وقد بلغ الان الذروة واصبحت اوروبا قارة قديمةاستنفذت مواردها وشاخت مصالحه بينما لا يزال العالم الاخر في صرح شبابه يتطلع الى المزيد من العلم والتنظيم والرفاهية. هذه هي مهمتكم ايها السادة وعلى نجاحها يتوقف رخاؤنا وسيطرتنا). (1)

وانبثق عن المؤتمر لجنة سميت لجنة الاستعمار استمرت في ابحاثها ودراستها سنتين حتى عام 1907 وكان واضحاً ان على اللجنة تحديد الاساليب التي تمنع سقوط الامبراطوريات الاستعمارية القائمة والتي تؤمن سيطرتها الدائمة من اجل استغلال اشمل واطول.

لم يكن مطلوباً استبعاد اساليب الاستعمار القديمة وانما كان المطلوب تطويرها لتتلائم مع المتغيرات.. فالاستعمار التقليدي بحاجة الى ثوب جديد يستبدل الجيوش والاحتلال المباشر بقواعد عسكرية او انتداب مؤقت يتطور الى شكل حكومات عميلة ومنظمات حكومية خاضعة، وشركات متعددة الجنسيات وصولاً الى مقولات العولمة ونهاية التاريخ.

وكان اهم ما واجه لجنة الاستعمار هو وضع منطقة البحر الابيض المتوسط وخاصة شرقه وجنوبه، حيث يمتد العالم العربي في وحدة جغرافية من المحيط الى الخليج، ووحدة تاريخية عريقة تؤكدها لغة مشتركة ودين مشترك وثقافة مشتركة وآمال بالمستقبل واحدة. موحدة .. ناهيك عن سيطرته الفاعلة علىثرواته الطبيعية ومواردها البشرية التي ان تحققت فانها ستشكل للاستعمار الضربة القاضية. ولقد جاء في تقرير لجنة الاستعمار ما نصه (ان الخطر يكمن في هذه المنطقة بالذات وبصورة خاصة في تحررها. وتثقيف شعوبها وتطويرها وتوحيد اتجاهاتها. لذلك فعلى الدول ذات المصلحة ان تعمل على استمرار تآخرها.. وتجزئتها وابقاء شعوبها مفككه جاهلة متناحرة. وعلينا محاربة اتحاد هذه الشعوب وارتباطها بأي نوع من انواع الارتباط الفكري او الروحي او التاريخي. وايجاد الوسائل العملية القوية لفصلها بعضها عن بعض. وكوسيلة اساسية مستعجلة ولدرء الخطر توصي اللجنة بضرورة العمل على فصل الجزء الافريقي من هذه المنطقة عن جزئها الاسيوي وتقترح لذلك اقامة حاجز بشري قوي وغريب بحيث يشكل في هذه المنطقة. وعلى مقربة من قناة السويس قوة صديقة للاستعمار عدوة لسكان المنطقة). (2)

كان لابد من استخدام اسلوب استعماري جديد يضمن ديمومة السيطرة. على هذه المنطقة.. وقد استوحت لجنة الاستعمار اكتشافها من ملفات نابليون وبالمرستون ودزرائيلي الذين نادوا باقامة كيان يهودي في فلسطين يشكل حاجزاً بشرياً يعمل لخدمة الاستعمار. ولئن كانت صرخاتهم في البرية قد ضاعت سدى لعدم اصغاء اليهود الذين كان الاندماج يشدهم الى الاوطان التي ينتمون اليها، الا ان صراخ المذابح في روسيا وما تلاه من هجرات ومؤتمرات صهيونية تعمل على استطيان فلسطين جعلت لجنة الاستعمار تكتشف ان الحل الوحيد يكمن في فرض حالة توتر دائم في المنطقة تتمثل بفرض استعمار استيطاني يشكل حالة استعمار مركزة تجمع في بؤرتها كل قوانين الاستعمار بشكل سافر.

فقانون التفوق العنصري يترجم نفسه بوضوح في أسطورة شعب الله المختار. وفي ممارسة التمييز العنصري. كما ان قانون المصلحة يترجم نفسه على المدى الاستراتيجي من خلال خرافة ارض الميعاد التي تحقق مصلحة مشتركة لليهود وللدول الاستعمارية. اما السيطرة فتتحقق عبر انابيب الدعم اللانهائي من قوى الاستعمار والامبريالية وتتكرس بها اشكال واساليب السيطرة الاخرى من تجزئة وتخلف وتبعية، وترتاح بذلك الامبريالية من اشكال الاحتلال المباشر السافر وتتكئ مرتاحة باعتماد استراتيجية التوتر

الدائم.

هكذا ولدت الحركة الصهيونية كضرورة لخدمة الاستعمار والامبريالية. وجاءت الحرب العالمية الاولى واتفاقية سايكس بيكو ووعد بلفور والانتداب البريطاني لتعزيز مهمة الكيان الصهيوني في تأكيد استراتيجية التوتر الدائم وتكريس التجزئة والتخلف والتبعية في الوطن العربي والامة العربية.

وحين جاء الرد القومي العربي ينادي بالوحدة وبالا ستقلال وبالحرية، اصبح الصراع العربي الصهيوني والصراع الفلسطيني الا سرائيلي يحددان ساحة الصراع الاساسية واطراف الصراع وطبيعته واهدافه، بما يؤكد انه لا يمكن تحقيق سلام عادل وشامل، او استقرار دائم في المنطقة، ما دام الكيان الصهيوني يعبر عن استراتيجية التوتر الدائم التي اعتمدتها الدول الاستعمارية. والتي اصبحت اكثر ضراوة في مرحلة الامبريالية الامريكية.

لقد استطاعت الدول الاستعمارية فرض الكيان الغريب، واستطاع الكيان ان يفرض وجوده لتحقيق الاهداف في المجالات التي كان فيها الاداه للاستعمار في حين انه لم يحقق الاهداف اليهودية التي كان يطمح الى تحقيقها بنفس المستوى.

ففي مجال دور الكيان الصهيوني كأداه للاستعمار حقق المهمات التالية في اطار استراتجية التوتر الدائم:

1. تكريس التجزئة:

لقد استطاع الكيان ان يضرب الوحدة الاندماجية التي تمت بين مصر وسوريا في عهد الرئيس عبدالناصر.. كما ضرب كل محاولات عبد الناصر للوحدة مع العراق وليبيا وسوريا والسودان.

2. تجزئة التجزئة:

لقد وضع الكيان الصهيوني مخططاً يهدف الى تمزيق العالم العربي على اسس طائفية بحيث تثار مشكلة وحدة كل جزء من اجزاءه وخاصة في لبنان وسوريا حيث كانت تحالفاته مع الكتائب وضرب الاحرار في كموارنة واثارة نعرات الشيعة والسنة والدروز والعلويين.. الخ وانتهى باحتلال جنوب لبنان واقامة حاجز بشري تحت اسم المنطقة الامنية.

3. التجزئة بالاستفراد:

وهو الامر الذي تحقق عبر مؤامرة كامب ديفيد التي استهدفت اسقاط الدولة العربية الاكبر في شبكة الصهيونية والامبريالية وكانت واحدة من اخطر نتائج استراتيجية التوتر الدائم التي كرست التجزئة بما يدفع كل دولة عربية للبحث عن مصالحها القطرية الخاصة وتحقيق امنها القطري على حساب الا من القومي العربي. ففي كامب ديفيد تم التخلي عن الحقوق الثابتة للشعب الفلسطيني.

4. تكريس التخلف:

محاربة كل تقدم في البلدان العربية الى الحد الذي دفعه الى العدوان على العراق لضرب المفاعل النووي. وذلك لضرب النهضة التكنولوجية التي كان العراق يسعى لتحقيقها.

5. تكريس التبعية:

استطاع الكيان الصهيوني بالتعاون المباشر مع الدول الاستعمارية ان يفرض على بعض الدول العربية الاصطفاف الى جانبه في محاربة الثورة الفلسطينية. وقد جاء ذلك بعد ان اصبحت الثورة الفلسطينية نقطة استقطاب جماهيري وشعبي وعربي واصبحت تجد الدعم والمساعدة من معظم الدول العربية بعد حرب حزيران وبعد معركة الكرامة... وساهم الصهيوني كيسنجر في تحويل مواقف الدول عبر تهديده الشهير بقوله (كل نظام عربي تتواجد فيه الثورة الفلسطينية المسلحة عليه ان يقوم بتصفيتها وكل نظام يرفض او يعجز عن القيام بهذه المهمة سنقوم نحن بتصفيته).

وجاءت ايلول 70 وتبعها تصفية النظام السوري الذي ساند الثورة ثم محاولات التصفية في لبنان ونشوب الحرب الاهلية فيه بسبب عجزه عن القيام بمهمة تصفية الثورة الفلسطينية. مما فرض على الكيان الصهيوني ان يقوم بالمهمة بنفسه واحتلاله لبنان وعاصمته بيروت.

ما يدفع كل دولة عربية للبحث عن مصالحها القطرية الخاصة وتحقيق امنها القطري على حساب الامن القومي العربي. ففي كامب ديفيد تم التخلي عن الحقوق الثابتة للشعب الفلسطيني.

6. حماية المصالح الامريكية البترولية في الخليج العربي.

7. مواجهة المد الشيوعي في المنطقة:

وهو الامر الذي وصل ذروته في اتفاق التعاون الاستراتيجي من بين البلدين بما في ذلك حرب النجوم التي ادت الى تفكك الاتحاد السوفيتي وانهياره.

ما تقدم هو بعض ما تحقق وان كان اخطره هو الطاعة المشروطة التي وقف فيها الكيان الصهيوني يتلقى ضربات الصواريخ العراقية دون القدرة على الرد وذلك لحماية التحالف الثلاثيني ضد العراق من التفكك.

ما كان يمكن لامريكا ان تحافظ على التحالف مع دول عربية ضد العراق دون تجنيد الكيان الصهيوني.. وكانت شروط رئيس الوزراء الليكودي شامير على بوش وبيكر على الشكل التالي:

1. ان تقوم امريكا بعد انتهاء الحرب ضد العراق بالغاء قرار الجمعية العامة للامم المتحدة الذي يصم الصهيونية بالعنصرية وباستصدار قرار اعادة الاعتبار للحركة الصهيونية باعتبارها حركة التحرر الوطني للشعب اليهودي.

2. ان تقوم امريكا بطرد منظمة التحرير الفلسطينية من الامم المتحدة باعتبارها منظمة ارهابية .

3. ان ترتب امريكا مؤتمراً للسلام يكون فيه مسار تفاوضي ثنائي تتفاوض فيه اسرائيل مع كل دولة عربية من دول المواجهة على حده وبما يكرس استراتيجية كامب ديفيد. اي ان تبحث كل دولة عن مصلحتها وامنها القطري على

حساب المصلحة القومية والامن القومي.

4. ان يكون هنالك مسار تفاوضي متعدد الاطراف تشارك فيه الدول العربية البعيدة عن المواجهة لتحقيق المصالحة والتطبيع مع الكيان الصهيوني، ولدفع تكاليف عملية السلام.

بعد انتهاء العدوان دعا الرئيس الامريكي جورج بوش في السابع من آذار 1991 الى مؤتمر للسلام تم افتتاح جلسته الاولى في مدريد، وكان بالمواصفات الصهيونية، ولكن بوش فشل في تحقيق الشرطين الاول المتعلق بالحركة الصهيونية وكونها حركة التحرر الوطني للشعب اليهودي، حيث استطاع فقط ان يلغي قرار وصم الصهيونية بالعنصرية. اما الشرط الثاني فقد عجز بوش عن اي اجراء حياله حيث تكرست منظمة التحرير الفلسطينية ممثلاً للشعب الفلسطيني وللحركة الوطنية بـ 104 اصوات.

واذا كانت امريكا قد عجزت عن طرد منظمة التحرير من الامم المتحدة فقد استطاعت استبعادها المباشر من مؤتمر السلام المنعقد في مدريد. وتم تشكيل الوفد الفلسطيني بالمواصفات التي فرضها شامير بحيث تستبعد اي تمثيل للقدس وللشتات.

وقامت المنظمة بدور اللاعب الخفي. وفرضت وجودها الفعلي من خلال الوفد الوطني الفلسطيني المفاوض الذي رفض كل محاولات الفصل عن المنظمة.

مع وصول حزب العمل الى السلطة في اسرائيل، وبعد وصول كلينتون الى الرئاسة اصبح الوسيط الامريكي صهيونياً ليكودياً. وبدأ دينس روس ومارتن انديك يدفعان الوفد المفاوض للقبول بمشروع التسلم المبكر للصلاحيات من اجل شطب المنظمة.

في ذلك الوقت بدأ شمعون بيريز وزير الخارجية يشعر ان العقبات التي يضعها الليكود الامريكي في وجه عملية السلام تهدف الى تعطيل المسيرة. ووجد انه اكثر تقارباً للتفاوض المباشر مع الفلسطينيين بعيداً عن الوسيط الامريكي.. وهكذا ولد مسار اوسلو الذي شكل امتداداً لاستراتيجية التوتر الدائم. والذي هدف الى الاستفراد بالمنظمة ضمن شروط موازين القوى المختله.

لم يكن اتفاق اعلان المبادئ يشتمل على ما يشير الى ان منظمة التحرير هي الممثل للشعب الفلسطيني. وقد تم تعديل ذلك باتفاق آخر على اساس الاعتراف المتبادل.. وتم اعتماد ذلك في البيت الابيض. حيث فرض اتفاق اوسلو نفسه على الكثيرين الذين اعتقدوا بمصداقية المشروع وتباشيرالدولة الفلسطينية في نهاية المطاف.

عند التنفيذ العملي للاتفاق كان الغموض المدمر في نصوصه يتيح للصهيونية المراوغة والخداع. وكانت شعارات رابين بأنه لا مواعيد مقدسة، وان الامن هو الاساس، هي ابرز ما ورثه نتنياهو من سلفه. فاصبح يحكم ويتحكم. واصبح الاتفاق الذي نجح نتنياهو في الانتخابات من موقع معارضته يفرض عليه التزاماً دولياً.

من خلال سياسته عبر الادارة بالازمات، وضع نتنياهو الاتفاق في ازمة مستمرة حتى يصبح اسقاطه وفشله مسؤولية فلسطينية. ان مواجهة المأزق الراهن الذي يفرضه نتنياهو بالتنسيق المباشر مع الوسيط الامريكي، المنسجم مع سياسة نتنياهو، يجعل صورة مستقبل عملية السلام في ذروة التوتر الدائم.. وهي

ذروة لها من يعارضها داخل الكيان الصهيوني وداخل الولايات المتحدة نفسها., فمصالح امريكا في المنطقة اصبحت اكثر تهديداً بسبب سياسة نتنياهو. وما جرى في مؤتمر الدوحة الاقتصادي وفي مؤتمر طهران الاسلامي اكبر دليل على ذلك.

وإذا كان نتنياهو يعتقد انه يقوم بتجديد شباب الحركة الصهيونية عبر ممارساته. فان ما انجزته هذه الحركة لمصلحة اليهود يعتبر ضئيلاً اذا ما قورن بالاهداف اليهودية التي تشكل اركان الحركة الصهيونية وهي:

1. هجرة اليهود الى فلسطين "الصهيونية هي الهجرة".
2. التوسع والاستيطان والحدود، حيث تصل اقدام الجنود.
3. نفي الاغيار.

إن عدد اليهود في العالم لا يقل عن ستة عشر مليوناً منهم اربعة ملايين يعيشون في اسرائيل. والباقي في الخارج.. وهذا يعني ان الركن الاول من اهداف الحركة الصهيونية لم يتحقق بالمعنى المطلق.. وانما بالمعنى النسبي الضئيل.

أما بالنسبة للركن الثاني فقد حققت نجاحات نسبية اكبر ولكن مصلحة الاستعمار ودورها في تنفيذ استراتيجية التوتر الدائم فرض عليها الانسحاب من مساحات شاسعة من الاراضي باتفاق كامب ديفيد.. وبمساحات محدودة جداً من داخل فلسطين باتفاق اوسلو. واصبحت مرغمة على انسحابات مستقبلية لصالح دورها المستقبلي. اما بالنسبة للركن الثالث المتعلق بنفي وجود الشعب الفلسطيني سواء بالانطلاق من شعار ان فلسطين (ارض بلا شعب لشعب بلا ارض) او بالرد المعروف لجولدا مائير التي عندما سؤلت عن مستقبل الفلسطينيين قالت.. الفلسطينيون ليس لهم وجود.

واليوم وبعد ان فرض الشعب الفلسطيني نفسه ووجوده في المنظمات الدولية والاقليمية. واصبح معترفاً به رسمياً من الكيان الصهيوني. وقد عبر احد المهاجرين من الاتحاد السوفيتي السابق بأن الحركة الصهيونية قد انتهت يوم 16/1/1997 ويقصد بذلك انها انتهت بعد ان وقعت حكومة الليكود بقيادة نتنياهو على الانسحاب من الخليل التي تعتبر بالنسبة لليهود ارض الاباء والاجداد.

وهذا يعني ان انضمام الليكود الى حزب العمل بشأن تنفيذ الانسحاب وتصديق ذلك من الكنيست بأغلبية 87 صوتاً، وهو ما يفوقنسبة التصويت على كامب ديفيد، يؤكد ان ركن نفي الاغيار قد انقضى.

وعلى الرغم من مواصلة نتنياهو لعب دور المرابي الجشع في النسب المئوية للانسحابات المقترحة الا انه سيواجه بحقيقة انه على الرغم من مرور ما يزيد عن مائة عام على مشروع العدوان الصهيوني الامبريالي على بلادنا العربية، ومرور خمسين عاماً على تجسيد العدوان مادياً على بلادنا العربية فلسطين تحت اسم اسرائيل، الا ان الحق الطبيعي والتاريخي، القانوني للشعب الفلسطيني في وطنه فلسطين يظل ثابتاً غير قابل للتصرف، بما في ذلك حقه في العودة وتقرير المصير واقامة الدولة الفلسطينية المستقلة وعاصمتها القدس المباركة.

الهوامش

1. ايوب. سمير وثائق سياسة الصراع العربي الصهيوني الجزء الاول ص250.
2. عباس. محمود الوجه الاخر ص22.